مدخل إلى الشعرية عند جون كوهين

ابن حلّي عبد الله
جامعة وهران

Structure du langage poétique . 1966 ...(1)

هذا كتاب كُتب في الستّينيات ، قد يكون كبيرَ السّن ، ولا يزال له تأثيره لحدّ السّاعة . وهو كتاب يعمل في **الشعريـــة La poétique** ، ولا ينسى له تاريخ الشعرية أنه خطا به خطوة واسعة نحو الاستقلال والتخلّص من كونه مستعمرة لحقول معرفية عديدة .

صاحبه هو الباحث الفرنسيّ **جون كوهين (Jean Cohen)** ، وفيه يطلّ على القصيدة من الدّاخل ، ويعتبرها كاللّغة تماماً ، منظومةً تتمتّع بنظام خاصّ بها وحدها، ولذلك يجوز تناولها كما تتناول اللسانياتُ اللغةَ ، أي أن نطبّق عليها المنهج الذي يطبّقه اللسانيّون على موضوعهم للكشف عن آلياتها ،وإثبات أنها تتمتّع باستقلال ذاتي ، والبرهنة على أنها في غنى عن أية مساعدة خارجية لتدير شؤونها الداجنة .

والظاهرة التي تملك هذا العالم تسمّيها البنيوية **منظومة أو نسقاً** Systéme وما تفعله البنيوية في دراستها لهذه المنظومة هو أن تباغتها من الداخل وتطلّ عليها وهي تعمل في صمت ، وتحاول القبض على القانون الذي يسيّر العلاقات بين عناصرها، أي القبض على البنية ؛ كأن الدراسة البنيوية نوع من التّجسس ، اختراق نظام بتعبير الجوسسة .

وهو كتاب له وزنه في الدّراسات الشّعرية التي تنـــزع نزعة علمية كاللسانيات، وقد شدّ كثيراً من الباحثين بالمنهج الذي طبّقه ، والنتائج التي انتهى إليها ،

وساعدهم في فهم القصيدة من الدّاخل . وتأتي أهميّته أيضاً من جوانب كثيرة لفتت النظر لجدّتها ولجرأتها زمان كانت البنيوية تطرح أسلحتها الثقيلة في ساحة العلوم الإنسانية وتمارس تأثيرها النفّاذ في مناهجها ، وقد لفت النّظر كذلك بالمناقشة الجريئة التي وضّح فيها قصور النقد الحديث والبلاغة القديمة عن فهم النّص الأدبي أو القصيدة ، أو بالتطبيقات التي أجراها على القصيدة الفرنسية ليثبت صحّة النتائج التي انتهى إليها بتطبيقه البنيوية على القصيدة .

ويخصّص كوهين مدخلاً وفصلا خاصّا يناقش فيها الرؤية المنهجية التي سيتسلّح بها لاختراق القصيدة ، وهي رؤية من الأحسن أن تكون معنا ونحن نتابع تفكيكه وتركيبه للحالة الشعرية ونظامها الدّاخليّ .

وسندير عرضنا ما أمكن في هذا المدخل على المحاور التي نراها تشكّل العمود الفقري للمنهج الذي سيدرس به كوهين الشعرية ،ونحاول أن نقدّمه كما قدّمه دون تعليق في انتظار تطبيقاته التي سنلقاها في الفصل الأول ، والتعليق الذي نلقاه في الفصل الثاني.

ويمكن أن ندير هذا المدخل حول النقاط التالية :

1 ــ إلغاء المرجعيّة الخارجية

2 ــ الشكل هو المقصود بالدراسة

3 ــ تأبّي الشعر على التّرجمة مقياس للشعرية

4 ــ مقارنة اللسانيات بالشعرية واللغة بالشعر

5 ــ إجراءات تقنية في المنهج

ـ 1 ـ إلغاء المرجعية الخارجية :

يخصّص الباحث أكثر من ربع كتابه لمناقشة المناهج التي تعمل في الساحة الأدبية بما فيها البلاغة ، ولعرض المنهج الذي يتّبعه والتّقنية التي يأخذ بها في تطبيقه البنيوية على القصيدة الفرنسية كعيّنة لا كنموذج ، ويتحدّث طويلا عن عجز المناهج الخارجية في اختراق عالم القصيدة وفضح نظامها وكشف أسرارها ، ممهّداً بذلك للمنهج الذي ينوي تطبيقه .

يرى أنّ النقد الخارجيّ ، على الرّغم من أهميّته ، لا يولي الشّكل العناية التي يحتلّها طبيعيّا في تشكيل الظاهرة الشعرية ، ولا يزال هذا النّقد المتأثّر أو المطبّق لمناهج العلوم الإنسانية على الأدب يعتبر الشكّل في النّصّ الأدبيّ عرضاً أو ديكوراً ليس إلاّ ، وهو نقد لا يعمل إلاّ داخل الأصول والتاريخ، ومهمّته الأولى هي شرح النّصوص وتفتيتها ، ومن ثَمَّ قتلها بحثاً عن المحتوى ، والمحتوى لا يملك قيمة جمالية ، وإنّما هو يملك قيمة الحقل الذي أتى منه ، وهي قيمة مفروضة على القصيدة ، وكلّ ما هو مفروض عليها هو في الوقت ذاته مرفوض منها .

وهذا النّوع من النّقد الأيديولوجيّ كان محطَّ انتقادات كثيرة ، منذ أن بدأت اللسانيات تطرح منهجها بقضاياه وترسانته الجديدة من التّصورات والمصطلحات كما سيتضح .

ولعلّ موقف كوهين من هذا النّقد يعطينا فكرة عن الحرارة التي صاحبت ظهور اللسانيات ومفعولها السّحري في نفوس المتحمّسين بمنهجها الدقيق ؛ فقد اكتشفوا فيها الفرصة الوحيدة لجعل الدّراسات الأدبية دراسات علميّة ، وهو الحلم الذي راود النّقاد منذ زمن طويل ، كما اكتشفوا فيها طريقة محايدة ، لا تأخذ الظاهرة الأدبية مأخذا تاريخيا ولا مأخذا نفسيا ، وإنّما يأخذها كما هي ظاهرة أدبية ، وتبحث فيها عن الجوهر الذي يجعلها ما هي عليه ، وهذا الجوهر هو **الأدبيّة littéralité**.

وقد كانت الجبهة الشرقية في روسيا وبعض الدول المجاورة ، قد قطعت شوطاً في دراسة الأدبية ممهّدة بذلك لظهور القواعد الأولى للبنيوية والسيميائية ، وهذا في الحلقات المشهورة التي كانت تنتشر عبر أوربا وأمريكا ، وتنشر نظرتها الجديدة في دراسة الأدب واللغة قبله ، وإدخالها في حقول معرفية عديدة .

ويحتاط كوهن من فرض المناهج الخارجيّة على الأدب ، ولا يتّبع هذا النّوع من النقد لأنه نقد يفكّر تفكيرا أحاديا وجزئيا ، ولا يرى القصيدة نظرة شمولية ، بل يراها إمّا أصولاً نفسية أو اجتماعية ، معتقداً بذلك أنه فسّر العمل الأدبي وأعطاه أبعاده لأنه ربطه بطفولة صاحبه أو بوسطه . وتكون النتيجة كما يقول أن :

يتوارى عنه موضوعه الحقيقيّ ، إذ يبحث وراء اللغة عن مفتاح موجود في اللغة نفسها كوحدة لا تنفصم بين الدّال والمدلول . (2)

ولا يقبل هذا المنهج الخارجيّ الذي لا ينكر نفعه في مجالات أخرى ، ولا يكون له نفع كبير في دراسة القيمة الجمالية ، وليس له ما يقول عن عالم الشعر الحقيقي .

ويتّخذ من منهج التحليل النّفسي نموذجاً لهذا النّوع من النّقد الفاشل في فهم الشعر ، ويعتبره كغيره من المناهج الإنسانية **يدّعي ما ليس له بغير حقّ** ، ويتّهمه بأنّه لا يملك نظرية في الجمال ، ومن ثَمَّ ليس له الحقّ في الزّعم بأنّه يفهم النّصّ الأدبي عندما يردّ استعارةً ما إلى عرض من أعراض الأمراض النّفسية ، فهو لا يقول شيئاً عن الشكل الذي جاءت فيه هذه الاستعارة ، وهذا الشكل هو الفنّ .

ونرى هنا تأكيداً من كوهين أن هذا النّوع من النّقد لم يحالفه الحظّ في بحثه عن الشعر ، ولذلك يجد له عذراً إن هو استعان في بحثه هذا بالمنهج الجديد ، ويستشير في ذلك مجموعة من الكتّاب يجمعون على إعادة النظر في المناهج التي تلغي الشكل في الأدب لتبحث في المحتوى ، ويتّفقون على أن الشعر يكمن في شكل القصيدة . ويذكّرنا

بما قاله مالارميه Mallarmé من أنّ الشاعر لا يصنع الأبيات الشّعرية بالأفكار، بل يصنعها بالكلمات ، ويذكّرنا أيضا بما قاله بعده أبولينير Appolinaire من أن الفرنسيين أحبّوا الجمال على سبيل الاستخبار .(3)

وينتهز المناسبة ليسخر من الطريقة الكلاسيكية التي تأخذ نثر الشعر درساً لها ، وهي سخرية معتادة عند الأكاديميين الجدد ، لأن الترجمة ، ولو من لغة القصيدة إلى لغة القصيدة خروج من سياق لسياق ، وبما أن الشعرية تعتمد الشكل فإن الشكل يفقد رونقه عندما يترجم ، كنخلة تُرحّل قسرا من تربة هي تربتها إلى تربة غريبة عنها فيها أملاح وأجواء لم تتعوّد عليها فتذبل وتموت قبل وصولها إلى المقرّ الثاني . **والشكل شكلان شكل في الصّوت وشكل في المعنى ، والترجمة النثرية تُخلّ بالأمانة عندما تتركهما معاً أو تخلّ بأحدهما .**

ويعزّز موقفه الرّافض بإيضاح رؤيته الجديدة للقصيدة ، وتقديم البديل الذي يحترم حرمة الشعر ولا يفرض عليه أو يتعسّف في معاملته ، والذي يرصد الوقائع ولا يفرض القوانين . ويحاول ما أمكن سحب البساط من النقد الحديث ، إذ كلّما أثبت بعدَ النقد الخارجي عن الأدبية كلّما مهّد بقوّة للمنهج الذي سيقترحه .

ويلغي بذلك الرّجوع إلى مرجعية خارج القصيدة ، فدلالة الشكل موجودة فيه لا خارجه ، ولذلك يستبعد النّقد الخارجيّ ، على الرّغم من أهميّته ، لأنّه نقد يعمل خارج الأدب معتقداً أنّه يعمل داخل الأدب ، ولأنه لا يملك رؤية للشكل وإن كان يملك رؤية أحادية للمحتوى .

2 ــ الشّكل هو المقصود بالدّراسة :

ولكن ما هو الشكل الذي يتحدّث عنه كوهين ؟

نكتفي هنا بإشارة بسيطة تجعلنا نتابعه ، في انتظار بسطه في الفصل الموالي ، ونقنع بالقول إن الشكّل عنده هو العلاقة التي تجمع بين الكلمات ، والمادة هي الكلمات نفسها فالجملتان : **ليلٌ أخضر / فكرةٌ منتحبة** جملتان مختلفتان في الكلمات ، ولهم تركيب أو شكل واحد ، مكوّنتان من نعت ومنعوت أو صفة وموصوف أو مسند ومسند إليه .(4)

ويذكّرنا بما قال سوسير في محاضراته من أن اللغة تتكوّن من مادتين مستقلّتين هما : Signifiant و Signifié ، **الدّال** هو المتلَفَّظ به ، **والمدلول** هو تصوّرنا لفكرته أو تذكرّنا له وهو في الواقع ، مثل الغول أو الشّجرة .

وتكون الدّلالة ما يتولّد عن إحالة أحدهما على الآخر ، ويتمّ التولّد باحترام قواعد تفرضها اللغة ، والكلام تطبيق أو تنفيذ لهذه القواعد ، فهو يعمل بها ، وكأنها أداة في لسانه ، لذلك فاللغة شكل لا مادة ، حسب سوسير دائماً .

وفي هذا اللقاء الحاد بين الشّكل واللغة تتشكّل الصّور بالكلمات ، الرّسم بالكلمات وهي صور من نوعين صور سبق وأن استعملها بعض الشعراء ، وهذه تُسمى **صور استعمال** ، وهناك صور أخرى أهمّ هي التي يبدعها الشعراء إبداعاً جديداً ، وهذا هو المطلوب منهم ، وتُسمّى **صور إبداع**. وفي ضوء هذا الصراع بين اللغة والشكل يفسّر المعجم الجديد الذي جاءت به الرومانسية ، ويفهم كلمة فيكتور هيجو **لنحارب البلاغة** بأنها ليست موجّهة للبلاغة في حدّ ذاتها ، وإنّما هي موجّهة للصّور المستعملة التي فقدت بريقها من كثرة الاستعمال والتقليد فابتذلت .

ويكون الشكل في نهاية أمره هو اللعبة التي يلعبها كلّ من الدال والمدلول للتحايل على اختراق قوانين اللغة كما سيتّضح . والشكل ليس حرًّا في تحرّكاته لأنه يخضع لضغوط لغوية نحوية صرفية موسيقية ، ويكون الشعر هو غاية هذا الصّراع المنتظر بين الشكل وهذه الضغوط التي أشرنا إليها ، لذلك نستطيع القول إنّ عمل كوهين سيتمّ في هذه الجبهة المشتعلة ، أي الجبهة التي يصنع بها الشكل نفسه وسط هذا الجو المضطرب ، ووسط رفض اللغة الاستسلام المجّاني له لأنها تراه غازيا يريد اختراق حرمتها ، وهذا ما سنفصّله في الفصل الموالي .

إن المدلول يحيل إلى شيء ما في الخارج أوفي أذهاننا . وهذا الشيء الذي يحيل إليه المدلول ليس شعريا ، بل هو محايد بالقياس إلى ثنائية التعارض بين اللغة الشعرية واللغة العلمية أو بين الشعر والنثر ، ولا تملك اللغة كثيراً لكي تعطيه لهذه الأشياء سوى ذبذبات صوتيّة ومواقع استراتيجية في أحسن الأحوال ، فالأشياء لا تصبح شعرية إلاّ بفضل اللغة فتكون شعراً أو نثراً ، عدالة بين الكلمات ، وقد مضى الزّمن الذي كانت فيه الكلمات شعرية في حدّ ذاتها كما كان الشّأن عند الرومانسيين مثل الأصيل والقمر والخريف والوردة وغيرها من الكلمات التي كان يعتقد أنّها شعرية طبيعةً .

إذاً يكون الهدف الأول من هذا الكتاب البحث عن العناصر وآليات التعارض التي تعمل في القصيدة ، والحوار الذي يقوم بين عناصرها ، ويجعل منها ما هي عليه .

وهذا العمل الذي يضطلع به كوهن ، والذي شحذ له هذا المنهج ، هو في نظره ، ما نسيت البلاغة أن تقوم به ، ويعني به تجديد البلاغة الكلاسيكية التي وصلت إلى طريق مسدود ، وفتح قناة جديدة أمامها ، فالبلاغة قد قامت بعمل كبير هو أنّها وصفت العناصر أو الصّور التي تعمل في القصيدة من إيقاع وقافية وجناس ، وسمّتها وصنّفتها .. ولكنّها توقّفت عند هذا التّصنيف ، ولم تتجاوزه إلى البحث عن المشترك بين هذه العناصر أو الصّور .

فهل توجد بين القافية والاستعارة والتّقديم والتّأخير علاقة ؟ (5)

وهذا هو السؤال الذي يلف به إلى جوهر الشعرية ، أي أنّه سيقرأ البلاغة قراءة شمولية بنيوية لا تبحث عن الشعرية في العناصر ، وإن كانت تحتاج هذه العناصر كما كانت تحتاجها جدّتها البلاغة ، ولكنها ستبحث عن الشعرية في العلاقة بين الدّال والمدلول وتوزيعهما الأدوار داخل النسق أو المنظومة ، ويقول:

" ووجهة النظر الشكلية هذه التي تطبّقها البنيوية على اللسان سنطبّقها من جهتنا على الكلام ." (6)

إذا فالرؤية واضحة ، والمنهج واضح ، والغاية واضحة أيضاً ، والموضوع جاهز أمامه وهو القصيدة الفرنسية ، والطّريق بيّن لاختراق عالم القصيدة ؛ تبقى فقط بعض القضايا الضرورية للمنهج ، لا بدّ من الإشارة إليها لأهميتها ، كما يفهم من إلحاح كوهين عليها بالوقوف عندها طويلا وتأكيدها .

3 ــ تأبّي الشعر عن الترجمة مقياس الشعرية :

من هذه كالقضايا المنهجية **التّرجمة بوصفها مقياساً يفصل الشعرية عن اللاّشعرية**، ويعود إليه كوهين ويجعله بديلا عن مبدأ قابلية التحقّق في المنهج العلمي ويسميه قابلية الترجمة ، وهو من البراهين التي سيعتزّ بها في تحليلاته ليثبت أن القصيدة شكلٌ ملتصق باللغة كجلدها ومن الصّعب فصلهما ، خلافاً للغة العلمية أو النثرية .

ويعود بنا إلى ثنائية الدّال والمدلول ، ليصل إلى مقياس أو عيار ، يكون في يده أداةً هامّة في التّعرف إلى الشّعرية وفي تمييزها عن غيرها من أنواع الكلام . ويصل

إلى هذا المقياس بالقول بأنّ المدلول هو بديل عن شيء موجود في الواقع أو موجود في تصوّرنا ، لأن اللّغة بديل عن الخبرة أو التّجربة .

ويعطينا مثالا لذلك فإذا سألت شخصاً عن السّاعة ، فأجابني : إنّها الثانية ، فإنك ستكون بهذا الخبر وكأنك قد نظرت بنفسك إلى الساعة .(7)

فاللغة مثل الساعة كلاهما بدل عن تجربة لم أختبرها وأخبرت بها ، وكأنني أخبرت بها . فالتجربة منفصلة عن اللغة أو اللغة منفصلة عن التجربة .

والدّليل على هذا الانفصال هو التّرجمة التي تعبّر بلغتين أو أكثر عن معنى واحد، وتفضح هشاشة العلاقة بين اللغة وما تحمله من محتوى ، لا سيّما ترجمة اللغة العلمية التي تتساوى مع أصلها ، فواحد بالعربية يساوي تماما واحداً بالفرنسية مثلاً ، ممّا يدل على أن الفكر تسهل ترجمته كلّما كان ضاربا في التّجرّد والحياد .

ويرى كوهن أن الترجمة تتقهقر إذا تعلّق الأمر بنصّ أدبي فهي لا تستطيع أن تترجمه وإن استطاعت أن تفعل فستترجم محتواه لا شكله إذ أن ترجمة المادّة اللغوية ممكنة ، أمّا ترجمة الشكل فغير ممكنة كما سيرينا ذلك تطبيقيا .

4 ــ مقارنة اللسانيات بالشعرية واللغة بالشعر :

ويكون بذلك قد وضع القاطرة على سكة المنهج البنيوي ، ويؤكّد أنّه يستعير من اللّسانيات أدواتها المنهجية ليجريَها على القصيدة ، أي أنّه لا يلغي الخارج كلّية كما يقول ، إذ يستحيل على المرء أن ينفلت من الخارج لكونه هو نفسه صنيعة هذا الخارج بل يأخذ منه الأداة التي سيخترق بها نظام القصيدة ، وهي أداة لأنّها لا تحمل فيها نتائج قبلية كما تحملها المناهج النّفسية ، فالبنيوية التي يراها مناسبة لاختراق عالم القصيدة كما اخترقت عالم اللغة عندما اكتشفتها اللسانيات وطبّقتها . فكتابه كما يقول عنه هو **كتاب في الشّعريّة البنيويّة** ".

فاللسانيات قد أصبحت علماً عندما احترمت الظاهرة اللغوية وافترضت أنّ لها عالمها الخاص الذي لا تنفع فيه مناهج العلوم الإنسانية وقد كانت هي الوحيدة بين أيدي النّقاد ، والشعرية ، هي في نظره ، شبيهة باللسانيات لأنّها تهتمّ مثلها باللغة ، وإن كانت أكثر تواضعا وتهتم بشكل واحد من أشكال اللغة .

ولذلك سنرى أن كوهين يطرح افتراضاً في هذا الكتاب هو أن القصيدة تنطوي على عالم له لغته الخاصّة وعاداته وتقاليده المفروضة على الشعراء الذين يستجيبون لها ويطيعون سواء أكانوا واعين بذلك أم غير واعين ، إذ أن البنية حالة لا شعورية .
فالشعراء الجاهليون مثلا ، عندنا في تاريخ الأدب العربي كانوا يقولون الشعر موزونا على أوتار عديدة ، ولم يكونوا يعلمون بذلك حتّى جاء الخليل واكتشف لهم أنهم كانوا يعلمون ولا يعلمون أنهم يعلمون ، وهذا هو الجانب اللاّشعوري في البنية .وهذا حديث آخر .

والافتراض الذي تقوم عليه الدراسة اللسانية للغة هو أنها منظومة تتمتّع بما تسمّيه بعض المدارس البنيوية **مبدأ المحايثة** Principe d'immance ، ويشير إليه كوهين إشارة خفيفة ، وإن كان يطبّقه في كتابه هذا ، وهو مصطلح يدلّ على أنّ ظاهرةً ما تستمدّ وجودها من العلاقات التي تديرها بين عناصرها مثل اللغة ، النموذج المثالي عندهم .(8)

1 ـ 5 ـ إجراءات تقنية في المنهج :

قبل البدء في عرض خطوات هذا المنهج وهو يطبّقه نشير في نهاية هذا المدخل إلى العناية التي يعطيها للمنهج ، وعرضه لخطواته وإجراءاته في مدخل وفصل

كاملين بكثير من البسط والوضوح ، وإفساحه مجالا واسعا لمناقشة قضية تطبيق العلم على الشعر ، والمضاعفات والحسنات وراء ذلك كلّه ، ويعلن أنه سيطبّق المنهج العلمي على الظاهرة الشعرية ، واضعا كثيراً من الاحترازات نصبَ عينيه ، ويحاول تفاديها إذا كانت تسيء لغايته ، ويحاول التزامها إذا كانت من مقتضيات من هذا المنهج .

وليس معنى ذلك أنه من الذين يطلبون من الشعر ما يطلبون من العلم والفلسفة ، أي أن يكون تعبيراً عن حقائق عن جديدة ، واكتشافاً للمظاهر المجهولة من العالم الموضوعي ، لأننا لو طلبنا ذلك من الشعر فسنرتكب بصنيعنا هذا خطأً قاتلاً ، فالشعر ليس علما بل هو فنّ . (9)

وما يأخذه من العلم هو منهجه لا غاياته ، كأن يلتزم في بحثه الدّقة العلمية ومبدأ التحقق أو الدليل العلمي ، ووصف الظاهرة ورصدها بموضوعية ، فنتائج هذا البحث لن تكون نتائج جاهزة يسعى لإثباتها في موضوعه ، ولن يدخل موضوعه وهي في يده عليه ، ويبقى عليه بعد ذلك أن يثبت وجودها في الشعريّة كما نفعل المناهج الخارجية .

ويؤكّد أن كتابَه هذا في الشعرية العلمية التي تعتمد الدّقة العلمية التي تعتمد بدورها الإحصاء . وسنعرض طريقته في الإحصاء التي يعتبرها بلا شكّ الدّليل العلمي الذي يثبت رؤياه للشّعرية ونظامها الدّاخليّ .

وما يحتاط منه هو ابتعاده عن النّموذج ، أي الاقتصار على مقطوعات معيّنة أو شاعر معيّن كنموذج ، كما هو متّبع في الدّراسات الأدبية ويرتاب في صحّة هذه الطّريقة الانتقائية وفي حملها الأمانة ، ويراها غير علمية ، ويستبدل بها ما يسمّيه العـيّنـة

التي تختصر الظاهرة المبحوث فيها ولا تلغي عناصرها الفاعلة . وهذا ما سنراه في الجزء التطبيقي .

الهوامـــش

1 ــ جان كوهن ، بنية اللغة الشعرية ، ترجمة محمد الوالي و محمد العمري ،ط1 ، دار توبقال ، 1986 ، الدّار البيضاء ، المغرب .

Jean Cohen ; Structure du langage poétique Nouvelle bibliothèque scientifique Paris 1966

2 ــ بنية اللغة الشعرية ، ص :39

3ــ نفسه ، ص : 40

4ــ نفسه ، ص : 43

5ــ نفسه ، ص : 42

6ــ نفسه ، ص : 28

7ــ نفسه ، ص : 32

8ــ نفسه ، ص : 40

9 ــ نفسه ، ص : 46